

دور المسكوكات في كتابة التاريخ.

أ.ة منصورى فريفة

معهد الآثار

اتخذ الإنسان فى العصور الأولى وسيلة تجارية يقضى بها حاجاته من بيع و شراء و هى المقايضة، حيث تبدل سلع بأخرى، طبيعية كانت أو صناعية تضاهيها فى قيمتها الاقتصادية، فكان مجال التبادل واسعاً مما أدى إلى ظهور عيوب المقايضة، كتبادل أشياء يصعب نقلها وكذا عدم تساوي سلع المبادلات فى كثير من الأحيان من حيث قيمتها ، فدعت الحاجة إلى إيجاد وسيلة يمكن نقلها باستمرار و قادرة على التقييم المضبوط للمادة التجارية، فكانت القطعة النقدية هى المقياس الذى يحدد القيمة، أما نوعية و طبيعة المواد التى استعملت فى سكها فهما كفيلاّن بالتعبير عن الأهمية الاقتصادية و التجارية.

فعرّف الإنسان كل أنواع المعادن من ذهب و فضة و برونز و نحاس و غيرها من المعادن الأخرى و بدأ فى تشكيلها إلى قطع متفاوتة الأحجام و الأوزان، و مختلفة النقوش و الأشكال.

إنّ معظم الحضارات قامت و ازدهرت فى مجالات متباينة ميّزتها عن بعضها البعض. و لقد تألّفت بعض الأمم القديمة بمجرد اقترانها بمجال النقود و ما يتصل به من أبعاد اقتصادية أو تجارية تصاحب الإنسان فى كل زمان و مكان.¹ فمجال المسكوكات من الناحية القومية تتجلى مكانته فى كونه تراثاً يتصل بشخصية الأمة و يعطيها طابعاً مميزاً، كما يحدد درجة رقيها.

و تعتبر النقود ذات أهمية خاصة فى الكشف عن العديد من مظاهر الحياة اليومية بمختلف مجالاتها فى العصور القديمة باعتبار ما تحمله القطعة النقدية من كتابات و نقوش و صور و هى كلّها مصادر لمعلومات تاريخية هامة لا يمكن أن توفرها العلوم الأخرى، و يمكن أن تثير هذه القطع مواضيع عديدة أهمّها المعتقدات الدينية و التى تعبّر عنها بصور لمختلف الآلهة الحامية المعتقد بها أو بعض المنشآت الدينية (صورة رقم 1 و 2)، كما يمكنها أن تثير المواضيع العسكرية المعبّر عنها بمشاهد حربية (صورة رقم 3 و 4)، أما التاريخ السياسى فتعبّر عنه الكتابات المتواجدة على وجه القطعة و ظهرها.

من هنا ندرك مدى القدرة على ابتكار تقنية جديدة تعدّ من أهم الإنجازات العائدة إلى الفترات القديمة تتمثل فى ضرب العملة وتداولها بمشارك الأرض و مغاربها ثم الاهتمام إلى وضع الصور و الرموز والمآثورات بطريقة فنية راقية.

1- فيكتور مورحان. تاريخ النقود/ ترجمة نور الدين خليل الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1993 ص 5.

و مما سبق ذكره نتساءل عن السبب الأساسي الذي ابتكرت لأجله العملة، و الدور الذي لعبته في التطور الاقتصادي، السياسي، الديني، و الفني في المجتمعات القديمة. كما نتساءل عن مختلف المواضيع التي تداولتها القطع و مراحل تطورها سواء على الوجه أو على الظهر، و إلى ما ترمز إليه هذه المواضيع؟.

لعله من الصعب أن نقدم إجابات شافية و تفسيرات كافية، و ذلك لأن الدراسات و الأبحاث الأثرية السابقة خاصة في هذا الميدان و هو المسكوكات تكاد تكون منعقدة بين الباحثين المختصين، في حين ندرك أنها من أهم الفنون التي خلفها القدماء في العالم القديم عموما و شمال إفريقيا خاصة، غير أنها لم تحظ بالقسط الكافي من اهتمام الباحثين رغم أن مثل هذا الميدان لعب دورا لا يستهان به في مختلف جوانب الحياة لدى المجتمعات القديمة. رغم التطور الذي يشهده العالم في جميع المجالات و العلوم.

1- تعريف العملة.

العملة أو السكة هي كلمة موجزة لعلم يحمل في طياته دلالات و مفاهيم كثيرة، و إرث حضاري و أثري تحفظه ذاكرة التاريخ، و هي الكتلة المعدنية ذات الخصائص القياسية المحددة و البصمات الرمزية و الرسمية الخاصة و التي ظهرت و تطورت في أوساط المجتمعات المنظمة.

و السكة هي قطع نقدية ذات أشكال معينة عليها رسومات و صور متعددة الطرز و الأشكال تعود لفترات مختلفة، كما أنها أداة يتم تداولها بين الشعوب و الأمم تستخدم كوثيقة رسمية ذات تأثير عظيم و انتشار سريع و تمكن من التعريف بمنجزات السلطة لأنها تمثل الفن الرسمي الصادر عن هذه الطبقة الحاكمة من رموز و موضوعات مصورة على العملة سياسية كانت أو دينية أو عسكرية أو حتى شعارات الدعاية، و منه فهي مصدر استنباط معلومات عديدة عند دراستها و التي تساوي إلى حد ما دراسة المصادر الكتابية، إذ تمثل سجلا واسعا للعديد من الجوانب الحضارية.²

و لأن السكة تضرب من مجموعة معادن مختلفة في قيمتها و وزنها فإنها تعتبر المعيار الحقيقي لمدى ازدهار أو تدهور اقتصاد دولة ما، فهي الترجمان الأول للعقيدة عند مختلف الشعوب و الأمم و يظهر ذلك من خلال المعالم و الشعارات الدينية أو مجموع الآلهة المصورة على ظهر القطع النقدية، كما أنها أداة معدنية في أشكال متنوعة عليها علامات و أنماط معينة. و كان ميلاد هذا الاختراع العظيم و الفريد من نوعه حوالي القرن السابع قبل الميلاد - حقبة ظهورها إلى الوجود - فاكتملت خصائص تميزها عن مختلف الأدوات و المقتنيات الأثرية الأخرى تمثلت في نوعية المعادن التي تكونها، ثم حجمها و ميزانها و اللذان عرفا تغيرات كثيرة تماشيا مع الأوضاع السياسية و الاقتصادية للمجتمعات و كذا الأنماط و الطرز المعتمدة فيها إلى جانب الهيئة التي أصدرتها و المتمثلة في ورشات الضرب.

2- حسن الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة(2)، الرومان، دار المعرفة الجامعية 2004، ص 364.

فعلم المسكوكات يهتم بدراسة القطع النقدية و الميداليات دراسة وصفية و تاريخية سواء في التنظيم السياسي أو التطور الديني أو الحياة الاجتماعية، و للتعبير عن العملة استعمل الإغريق كلمة ³ NOMISMA، و هو نفسه المصطلح الذي استعمله الرومان أنفسهم و ليس مصطلح MONETA رغم أن عملتهم تستمد أصلها من إلهتهم الحامية ⁴ JUNO MONETA

إن دراسة المسكوكات هي عملية تبدأ بمعاينة المادة الأولية المستعملة في إنتاج هذا الإبداع الحضاري المميز، و الاجتهاد في شرح و تحليل و ترجمة الرموز و الصور و العلامات الموجودة على القطع ثم ترتيبها كرونولوجيا و تاريخيا، و هذا عمل ليس باليسير، مع العلم بأن علم المسكوكات بدأ على يد هواة اهتموا بجمع مختلف القطع النقدية التي كانوا يجدونها بداية بالصدفة ثم بالبحث عنها و أولوها الكثير من الاهتمام و الدراسة التي كانت في البداية سطحية تعتمد على الوصف و الحجم و الميزان، ثم تطورت لتعطينا سجلات خاصة بالعملة.

2- نشأة العملة.

لا يمكننا دراسة المسكوكات كمادة تاريخية هامة دون أن نتعرف على طرق التبادلات الأولية ما قبل نقدية و التي أدت بطبيعة الحال إلى ظهور وسيلة أحدثت ثورة في جميع مجالات الحياة، بداية بالجانب الاقتصادي ، فالسياسي فالاجتماعي والديني وصولا إلى الجانب الإبداعي الفني.

ففي فترات ما قبل التاريخ لم تكن المجتمعات البدائية تعرف النظام النقدي في المعاملات، فكان الإنسان آنذاك يقضي مصالحه الهامة في الحياة و المتمثلة أساسا في التبادل التجاري دون وسيط مادي معلوم و منه كان لا بد له أن يجد لنفسه وسيلة يحقق بها حاجياته التجارية الخاصة بحياته اليومية فكانت وجهته لما يعرف بنظام المقايضة الذي كان في حقيقته نظاما اقتصاديا و تجاريا بدائيا، أي نظاما يستعمل لتسهيل التبادل بين الأشخاص أكثر من كونه مساهم لتطور المجتمعات مع قوانينها و حتمياتها⁵، فطبق هذا النظام على جميع السلع الممكن تبادلها بجميع أنواعها طبيعية أو مصنوعة مثل المواشي و المحاصيل الزراعية و الأدوات المصنوعة و الملابس. و مع مرور الوقت اتسع التبادل التجاري بنظام المقايضة و انتشر بسرعة فبدأت النقائص و العيوب التجارية تظهر و بكثرة فدعت الحاجة هذه المرة إلى إيجاد حل دائم لهذه السياسة التجارية الغير متكافئة، من هنا بدأ الإنسان يفكر في المعادن ليستعملها كمقياس يحدد به القيمة⁶ فاهتدى إلى صهر المعادن الخام ليجعل منها صفائح معدنية مختلفة الأشكال و الأحجام و أراد تمييز هذا الإنتاج الجديد بإعطائه سمة معينة تفرقه عن باقي المنتجات الأخرى، وكان فن الحفر على الأختام هو أول فكرة اهتدى إليها الإنسان لتكون هي أصل نشأة العملة، و بعد أن عرف

³ - REBUFAT (F), La Monnaie Dans L'Antiquité, Paris 1996, P14

⁴ - BABELON(J La Numismatique Antique, Paris 1964, P6

⁵ - REBUFFAT (F), Op.cit , P 77

⁶ - د/ عزت زكي حامد قادوس، العملات اليونانية و الهلنستية، الإسكندرية 2004، ص

جميع المعادن من ذهب و فضة و نحاس و برونز و حديد وكذا قيمة كل منها بدأ في تشكيلها حسب المقياس التجاري الثابت الذي أوجده لنفسه.

منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد (12 ق م) استعمل التجار الليديون صفائح من الذهب الأبيض - من الإلكتروم - كمقياس موحد لتسهيل المقايضة أو تبادلا للسلع⁷، و كذلك أقراص بأشكال غير منتظمة، و كان بعض التجار الأيونيين هم أصحاب فكرة الختم فوق تلك الصفائح المعدنية المكدسة في الخزائن، فكانت هذه العملية تتم بداية بواسطة رأس مسمار ثم بمخرز خاص لوضع الرمز أو العلامة التي تسمح بمعرفة المالك الأصلي و ضمان ملكيته لهذه القطعة أو الصفيحة⁸.

أما اختراع العملة بمعناه الحقيقي فيعود إلى بداية القرن السابع قبل الميلاد كما سبق ذكره، وكان طرازها المميز لها عبارة عن نقش في إحدى جهتي القطعة، أما في الجهة الأخرى فنجد علامة محفورة مميزة برسم حيواني⁹، و في بداية ظهورها كانت العملة مكرسة للديانة تضرب من خلال تأثيرات عقائدية بأبعاد فنية تطوّرت شيئا فشيئا لتصبح فيما بعد مصدرا تاريخيا ماديا يعتمد عليه.

3- دور و أهمية العملة.

تلعب المسكوكات دورا مهما في حياة المجتمعات منذ أن عرفت إلى يومنا هذا خاصة في الحياة الاقتصادية و ذلك بتسهيلها للمبادلات و التعاملات التجارية، و تظهر أهمية دراسة المسكوكات في كونها شاهد حي يعين على دراسة تطوّر الحضارات و الثقافات و الفنون عبر التاريخ، و هي مادة خام للبحث العلمي البناء و الثراء المعرفي. فغنى مجتمع ما يتوقف على كثرة هذا الثراء الذي لم يصبح حكرا لأمة معينة و إنما هو ملكية عامة للإنسانية جمعاء.

إنّ المعلومة التي يستقيها طالب علم الآثار أو طالب علم التاريخ على مقاعد الدراسة لا تدعم إلا بما توحى به الشواهد المادية من معالم تاريخية و شتى الأدوات الأثرية، و القطعة النقدية المتواجدة عموما في مخازن المتاحف أو القليل المعروض منها، دليل مادي كفيّل بأن يسرد التاريخ بأكثر دقة، فيجب النظر إليها على أنّها شاهد ناطق عن أحداث تاريخية متنوّعة و أداة بحث عن مختلف جوانب الحياة البشرية، رغم ما يواجهه الباحث من صعوبة قراءة و وصف هذه الوثيقة. وهي بإمكانها أن تكون أكثر دلالة و إيحاء إذا ما وضعت في إطار تاريخي معين¹⁰.

إنّ العملة أو القطعة النقدية هي الوثيقة المادية التي يعتمد عليها الباحث للغوص في أعماق حياة المجتمعات القديمة من جميع جوانبها، و بهذا التعمق يجد أنّها قد جعلت منه مؤرخا للعلوم التجارية و

⁷ - MAZARD (J) -LEGLAY (M), Les Portraits Antiques Du Musée Stéphane Gsell D'après Les Sculptures Et Les Monnaies, Alger 1958, p 7

⁸ - BABELON (J), Le Portrait Dans L'Antiquité D'après Les Monnaies, Paris 1950, P38

⁹ - BABELON (J), opcit, p 22

¹⁰ - أحمد سراج، في التاريخ الروماني، نشأة الجمهورية، بيروت 2001، ص26

الاقتصادية و فنان ومختص في أنظمة الحياة الاجتماعية و على دراية بالديانات القديمة و تطورها و حتى عارفا بالخبايا العسكرية، فيستقي المعلومات من القطعة النقدية ليبرر تعليقاته عن الموضوع المدروس و يوضح كل ما هو مبهم لينشر من خلالها ثمرة علمية ومعرفية تعكس روح المجتمع الذي تواجدت فيه و ذلك من خلال التطورات الفنية و التقنية عبر التاريخ.

في غالب الأحيان هناك نوع من العملة المتوفرة و المتداولة بشكل كبير بسبب إنتاجها بكميات هائلة و في حالة حفظ جيّدة تدل على تقنية الضرب المتطورة جدا و المستوى الفني الرفيع ، و في أحيان أخرى يظهر مستواها الفني و التقني المتدني من خلال بعض القطع و هو ما يدل على ضعف مهارة الفنان لشدة تأثره بالأوضاع الاقتصادية و الظروف الاجتماعية و الضغوطات السياسية السائدة.

إنّ دراسة المسكوكات و البحث فيها يضاهي البحث في المصادر الكتابية، فهي تختلف عن باقي الأدوات الأخرى كدراسة الفخاريات و التماثيل و غيرها، لأنّها مادة واسعة و سريعة الانتشار و كانت متداولة محليا و عالميا¹¹، و هي تتطلب الكثير من الاهتمام و العناية للتمكّن من البحث فيها و الوصول إلى النتائج المستهدفة و البلوغ بهذا العلم إلى مستوى هام باعتباره وسيلة للإشهار الحضاري و السياسي، و دلالة استقلالية و قوة سلطة ما.

4- علاقة المسكوكات بعلم الآثار.

يعتبر علم المسكوكات من العلوم التاريخية الجديرة بدراستها و البحث فيها، فهو عنصر هام من العناصر التي تغذي الأبحاث لمعرفة الحقائق و الأحداث التاريخية من جميع جوانبها، و في بعض الأحيان نجد بأنّ المسكوكات هي الأداة الوحيدة التي تعطي لنا الحقبة التاريخية الخاصة بملك أو إمبراطور أو أمير أو أي شخصية أخرى مصوّرة - على وجه أو ظهر القطعة -، أو عن مجتمع ما أو أمة من الأمم، و من خلالها يمكننا الاطلاع على الشؤون الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الدينية و حتى الحضارية لدولة من الدول أو شعب من الشعوب عبر التاريخ.

و غالبا ما يعجز الدارس لعلم التاريخ و علم الآثار على السواء في التعرف عن العديد من الشخصيات التاريخية مهما كانت مكانتها في مجتمعاتها و كذا وصف مختلف الآلهة المعتقد بها قديما إذا لم يعتمد على قطعة نقدية. فعلم المسكوكات إذا هو علم مساعد لعلم الآثار و علم التاريخ¹² و هو أحد أهمّ العناصر الأساسية التي يقومون عليها في جميع الجوانب الحضارية.

¹¹- د/ حسين الشيخ، المرجع السابق، ص346

¹²- MAZARD (J) & LEGLAY (M), Op.cit, P 9

و إذا كان علم الآثار مساعدا لعلم التاريخ في التأريخ و الاستشهاد بما هو مادي و قائم من معالم و أدوات، فإنّ المسكوكات هي مادة أساسية يعتمد عليها في علم الآثار بما تقدمه من معلومات مرسومة و مكتوبة على وجه و ظهر القطعة. و من خلال موضوع البحث الذي بين أيدينا نضيف بأنّ الفن النقدي بدوره مادة مهمة جدا في دراسة المسكوكات، و منه نلاحظ مدى الترابط المتسلسل بين العلوم و علاقتها الشديدة ببعضها البعض ، كما أنّ العملة مادة أثرية محضة تروي بنفسها تاريخ تطورها المتسلسل عبر الزمن انطلاقا من ظهورها كوثيقة نقدية بدائية ثم قديمة لتصل إلى مستوى العملة الحديثة المتطورة و ذلك بما توحيه من مواضيع مؤكدة و واضحة أو الخفية منها، و من أشكالها وأحجامها و نوعية المادة المعدنية المضروبة منها، و الأهم تقنيات تصنيعها.

و المسكوكات لها علاقة جد وطيدة بعلم الآثار بل هي عنصر هام من العناصر التي أوجدت هذا العلم، و يتأكد هذا في كون العملة النقدية هي مادة من مجموعة المواد الأثرية التي يعثر عليها في شكل كنوز أو مجموعات نقدية من خلال الحفريات أو عن طريق الصدفة خلفها القدماء، فمنها يستقي الباحث معظم الأحداث التاريخية الخاصة بالمجتمعات القديمة و يستشهد بها لأنّها المادة الحية المعبرة عن الحضارات البائدة.

5- مسكوكات شمال إفريقيا.

تعتبر المسكوكات الخاصة بشمال إفريقيا من أهم المصادر و الوثائق المادية ذات المصادقية التامة التي يمكن للباحثين في علمي التاريخ و الآثار الاعتماد عليها في فهم الغموض الذي يسود هذه الفترة أكثر من اعتمادهم على المصادر الكتابية، خاصة و أنّ المؤرخين القدماء ليسوا من أبناء المنطقة و هذا ما يجعل المعلومة غير دقيقة.

لقد تزامنت فترة تواجد المسكوكات الإفريقية بالفترة الهلينية و هي تلتقي كرونولوجيا ببداية التواجد الروماني على الساحة السياسية و الحضارية، و انتهت بانتهاء الكيان الروماني¹³. و لقد ساهمت دراسة المسكوكات الإفريقية في التعريف بالمملكات البربرية بما عرفته من تطورات سياسية و ثقافية وحضارية باعتبارها المنبع التاريخي المحلي، لكنها بقيت غير معروفة لمدة طويلة جدا لأنها لم تحظ باهتمام الباحثين في هذا المجال مثلما عرفته عملات أخرى، ربما بسبب قلة هذه الوثائق النقدية.

لقد كانت النقود الإفريقية المكتشفة في حالة جد سيئة بسبب استعمالها لفترات طويلة، فخلال الفترة الممتدة ما بين سقوط قرطاجة و عهد دوميسيان - و هي فترة طويلة - كان النقد الإفريقي هو المتداول لأنّ روما

¹³- ALEXANDROPOULOS (J), Les Monnaies De L'Afrique Antique, 400av.j.-c_ 40ap.j.-c, Presse Universitaire Du Mirail, 2000, P20

الجمهورية لم يكن بمقدورها تزويد المغرب الشرقي بالعملة البرونزية، و في بداية العهد الإمبراطوري وصلت العملة بكميات قليلة لتموين الاقتصاد النقدي، إلى أن توفرت تماما تحت حكم الأنطونيين¹⁴.

رغم أن عملة الممالك النوميديّة لم تكن أفضل من حيث الدراسة و الاهتمام إلا أن المنشورات الأثرية للقرن الماضي و التي عالجت المسكوكات الإفريقية ركزت على القطع النقدية الخاصة بهذه الفترة، رغم أن دراسة مسكوكات الملوك النوميديين ليس بالأمر السهل لعدم وجود أسمائهم على القطع النقدية كما أن صورههم الشخصية غير معروفة. و قليلا ما نحصل على المراجع و المصادر أو نجد من الباحثين من يهتم بدراسة العملات النوميديّة منذ ظهورها إلى أن اختفت رغم أن منطقة شمال إفريقيا ذات أهمية تاريخية وأثرية كبيرة، في هذا الجانب.

لقد شهد عهد ماسينيسا تضاعفا في العملة و نسب له تطوير التداول النقدي و الاقتصاد النقدي الإفريقي بشكل كبير و ذلك بسبب علاقاته التجارية مع إسبانيا و روما و العالم الإغريقي. و قد قام بضرب نقود بصورته و هو يضع على رأسه تاجا و إكليلا من الغار¹⁵، فكان أول نمط له، ربما يكون قد أخذه عن الرومان، و قد تميّز طراز العملة الخاصة به و بخلفائه بصورة الملك الملتي على وجه القطعة و الحصان الذي تختلف وضعيته من قطعة لأخرى على ظهر العملة¹⁶ (صورة رقم 5 و 6)، هذه الأخيرة التي أنتجت لفترة زمنية طويلة لم توجد عليها علامات تبين الورشات التي ضربت فيها ممّا صعب على الباحثين تقسيمها كرونولوجيا ثم وضع احتمالات التطور المتوازن للعملة¹⁷.

6 - المسكوكات الرومانية.

إذا كان الإغريق على العموم هم من كشف للعالم الغربي استعمال العملة، فالرومان هم من سجّلوا العملة في عادات و استعمالات الشعوب الغربية،¹⁸ و معنى هذا أن النقد الروماني لم يظهر إلا حوالي 300 سنة ق.م و هي فترة متأخرة¹⁹. بعد أن كانوا قد استبدلوا سياسة المقايضة بالعملة الإغريقية التي كانت النظام النقدي الدخيل على هذه المجتمعات و الذي انطلق على شكل صفائح برونزية سميت آس سيغناتوم Aes Signatum.

¹⁴- ALEXANDROPOULOS (J), Op.cit, P21

¹⁵- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس 1969، ص 136

¹⁶- MAZARD (J), Corpus Nummorum Numidiae Mauritaniaeque, Paris 1955, P30

¹⁷- ALEXANDROPOULOS (J), Op.cit, P149

¹⁸ DEPEYROT (G), La Monnaie Romaine (211av.J.-C.-476apr.J.-C.), Paris 2006.P7

¹⁹ - AMANDRY (M) & DHENIN(M), Les Collections Numismatiques, Histoire Numismatique De Gap, musée Départemental De Gap, 1991, P13

بعد أن تطوّر هذا الاختراع النقدي اتخذ الرومان العملة الخاصة بهم بما تحمل من خصائص تدل على هذا المجتمع، فطراً على هذا النظام النقدي إصلاحاً في العهد الجمهوري أين اعتمد على الدوني Denier كعملة الدولة و هو من الفضة، و الذي ظهر في سنة 211 ق م و كان يساوي 10 أس.

أما فترة الإمبراطورية العليا فقد تميّز فيها النظام النقدي بالرخاء والازدهار ومنه كانت العملة آنذاك مستقرة في قيمتها و مادتها الخام حيث ظهرت عملة من الذهب تسمى أوريوس Aureus و هي تساوي 25 دوني. و لم تكن العملة تتغيّر إلاّ بتغير الحكام و كان هذا التغير في المنظر الخارجي المتمثل في الصورة- التي اهتم الأباطرة بمعالجتها- و كذلك الكتابة لاستعمالها للترويج، في حين عرفت العملة تدهوراً فادحاً في قيمتها خلال عهد الإمبراطورية السفلى و عرف النظام النقدي خلافاً فادحاً بسبب الوضع السياسي الذي انعكس سلباً على الوضعية المالية خلال النصف الثاني من القرة الثالث الميلادي (256م-280م) فارتفعت الأسعار و انتشرت المجاعة في ربوع الإمبراطورية السفلى و نتج عن هذه الوضعية توقيف ضرب المحلي للعملة البرونزية بسبب الاختلاف القائم بين المخازن الشرقية و الغربية²⁰ ، كما أنّ المصاريف العسكرية الكبيرة التي كانت تتداول في فترات الحرب أدّت إلى نتائج وخيمة من الناحية المالية بصفة خاصة و النقدية الرومانية بصفة عامة، فنقص وزن العملة الفضية و البرونزية و القليل من القطع الاستثنائية التي ضربت من الذهب²¹. فبعدما كانت القطعة النقدية تضرب من المعادن الثمينة من ذهب و فضة أصبحت تضرب من معادن أقل قيمة كالبرونز و الرصاص و النحاس ما أدى بالأباطرة إلى القيام بإصلاحات نقدية عديدة استمرت إلى غاية القرن الثالث الميلادي، أهمّها إصلاحات ديوكليسيانوس السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية فاستتب على يده الحكم بعد وضع النظام الرباعي و هو نظام سياسي جديد أين يقتسم السلطة العسكرية و السياسية إمبراطورين²² و قنصلين. و لكن ما فتئت أن عادت الأوضاع إلى التدهور إلى غاية مجيء قسطنطين الذي تغير على يده النظام السياسي و الاقتصادي، فقام بضرب العملة الذهبية التي تسمى " السوليدوس"، كما ضرب العملة البرونزية بأعداد كبيرة جداً للقضاء على الأزمة الاقتصادية التي أرهقت المجتمع الروماني و التحسين من القدرة المعيشية لطبقة الشعب، و التي تميّزت بتنوع الإكونوغرافية الخاصة بالأباطرة الرومان في نهاية القرن الثالث و بداية الرابع الميلاديين²³.

لقد عرفت العملة الرومانية من حيث نمطها نماذج فنية تميز هذا المجتمع، فقد كان النموذج الفني المنقوش على وجه العملة عبارة عن الصور الشخصية الخاصة بالحكام و السياسيين و الذي استمر خلال العصرين الجمهوري و الإمبراطوري، أما على ظهر العملة فقد كان النموذج الفني بالدرجة الأولى

²⁰- CALLU (J-P), La Politique Monétaire Des Empereurs Romains De 238-311, Thèse Pour Le Doctorat, Edition E De BOCCARD Paris 1969, P 136

²¹- AMANDRY (Michel) & DHENIN (Michel), op.cit., P14

²²- SCHMIT (L)-PRIEUR (M), Les Monnaies Romaines, Editions Les Cheval- Légers, Paris 2004, P 563

²³- MAURICE (J), Numismatique Constantinienne Dans : Revue Africaine, 1910, P81

صور الآلهة التي ترمز لبعض المعاني الروحية، أو عناصر معمارية ذات الدلالة الدينية أو العسكرية، إلى جانب العلامات الخاصة بدور سك العملة و المنطقة التي تتواجد بها.

و لأنّ القطع النقدية المعتمد عليها في البحث و التي تعود إلى الفترة الرومانية ضربت من معدن واحد هو البرونز الذي يعتبر من المعادن المركبة، فقد ارتأينا إعطاء لمحة وجيزة عن هذا المعدن الذي يعرف بأنه خليط غير طبيعي من النحاس و القصدير و هو أكثر صلابة و أكثر مقاومة من النحاس نفسه، و لقد تميز هذا المعدن بكونه الأكثر استعمالا في ضرب العملة عند كل المجتمعات القديمة خلال مختلف الفترات التاريخية منها عملة شمال إفريقيا التي ضربت من البرونز خاصة النوميديّة منها و الخاصة بماسينيسا و خلفائه من بعده، كما استعمل بطريقة مميّزة خاصة في النقد الروماني²⁴، و قد اعتمد الرومان معدن البرونز في سك نقودهم و التي جاءت متأخرة لديهم²⁵، حيث كانت التبادلات التجارية اليومية تتطلب التعامل بالقطع النقدية البرونزية أكثر من الفضة أو الذهبية، كما أنّ الحاجيات المرتبطة بالجيش و الأنظمة المالية الخاصة بالحروب المحلية خاصة قد زادت من أهمية وجود العملة البرونزية²⁶، و التي تمثلت قيمتها في كونها استعملت بكثرة و تداولتها بالدرجة الأولى السلطة الحاكمة.

لقد كانت العملات البرونزية واسعة الانتشار و أوّل صورها و أكثرها انتشارا هو الآس الروماني، و بعدها صدرت عملات برونزية أخرى لكنّها أصغر تسمى السيسترس و الذي يساوي 4 آس²⁷.

ففي نهاية القرن الأوّل قبل الميلاد و بالتحديد من 38 ق م إلى 35 ق م ظهر لأول مرة نظاما نقديا محليا يحتوي أساسا على السيسترس من البرونز، قام بإرساله ثلاث جنرالات رومانيون هم:

L.Sempronius Atratinus - M.Oppius Capito - L.Calpurinus Bilbus-

و احتوى هذا النظام على ستة (06) نقود برونزية لم يستمر إصدارها طويلا و هي: سيسترس، تريميس، دوبونديوس، آس، سوميس، كوادرونس، لكن في عهد أغسطس ظهرت العملة البرونزية من جديد، و تميّزت بكتابة حرفي (C A) و هي: سيسترس، دوبونديوس، آس، سوميس²⁸.

أمّا خلال النصف الأوّل من القرن الثاني الميلادي فقد أنتجت روما كميات كبيرة من العملة البرونزية خاصة منها الآس²⁹. وفي نهاية القرن الأوّل و خلال القرن الثاني الميلادي كان ضرب العملة الرومانية من الذهب و الفضة يتم في ورشتين رئيسيتين هما ورشة روما و ورشة ليون و هذا خصيصا للإمبراطورية، أمّا العملة البرونزية فقد خصّصت لها ورشات محلية لضرب قطع متداولة بقيمة ضعيفة، و هي غالبا للاستعمال المحلي، لكن أزمة القرن الثالث الميلادي غيّرت الوضعية تماما، فارتفاع الكميات

²⁴- REBUFFAT (F), Op.cit, P56

²⁵- د/ عزت زكي حامد قادوس، العملات اليونانية و الهلنستية، الإسكندرية 2004، ص 11

²⁶- DEPEYROT (G), La Monnaie Romaine, 211av.J.-C.- 476apr.J.-C. Paris 2006, P23

²⁷- د/ حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 384

²⁸- DEPEYROT (G), Op.cit, P32

²⁹- AMANDRY (M) & DHENIN(M), Ibid, P 14

المضروبة و خاصة ارتفاع الحاجة في بعض المناطق لدفع رواتب الجنود دفع بالأباطرة لإنشاء مجموعة كبيرة من ورشات ثانوية لضرب العملة.³⁰

لقد ضربت قطع نقدية برونزية كانت مواضيع الوجه و الظهر فيها متشابهة لكنها تختلف من حيث الوزن و الحجم، كما ضربت قطع بأوزان و أحجام متساوية لكن المواضيع المصوّرة على الوجه و الظهر تختلف،³¹ و هو اختلاف في القيمة. ففي النوع الأول تختلف القطع فيما بينها من حيث القيمة المادية، أما النوع الثاني فتختلف من حيث القيمة المعنوية، كما أنّ المعادن النقدية لم تقدم مختلف الصور الإمبراطورية أو الملكية بنفس المستوى لأنّ القطع النقدية سواء الذهبية أو الفضية لم تتداول و لم تنتشر مثل القطع البرونزية التي كانت مخصصة للاستعمال اليومي و لطبقة شعبية كبيرة و تبادل اقتصادي واسع جعل حجمها و وزنها يتناقص شيئاً فشيئاً و قيمة المعدن المضروبة منه تقل كلما اختلط بمعدن آخر، و هذا ما تسبب في كون معظم القطع النقدية البرونزية - التي تعود إلى فترة الإمبراطورية الرومانية السفلى خاصة - متآكلة.

7- خصائص العملة.

1. إنّ أول و أهم ما يميّز العملة كونها أداة أساسية من مجموعة الأدوات الأثرية التي يعتمد عليها في الكشف عن ما هو مبهم و غامض من الأحداث التاريخية عبر العصور، ممّا جعلها تحظى بمرتبة علمية بين العلوم الأخرى فأصبحت تكنى بعلم المسكوكات.
2. أنّها أداة معدنية فحسب، إذ ضربت من مختلف المعادن كالذهب و الفضة و البرونز و النحاس و الرصاص و غيرها من المعادن أخرى.
3. تميّزت العملة بأنّها منذ نشأتها و هي الأداة التي لا يمكن الاستغناء عنها بعد اختراعها باعتبارها الوسيلة الوحيدة و اليسيرة في المعاملات التجارية و الاقتصادية، بعد التخلي عن سياسة المقايضة التي لم تكن تخلو من العيوب.
4. من جهة أخرى كانت العملة و مازالت المادة التي تنتج بكميات كبيرة جدا و دون انقطاع لما لها من دور في الترويج و في الإنماء التجاري و الاقتصادي و منه في الإنماء الحضاري و ذلك من خلال انتشارها و تداولها بطريقة واسعة.
5. تعتبر القطعة النقدية الأداة التي تدلنا عن المعمل الذي صنعت فيه خلافا لباقي الأدوات، و ذلك بالإشارة عن طريق حروف و رموز ترد أسفل ظهر القطعة و الدالة عن الورشة التي أصدرتها.

³⁰ - DEPEYROT (G), Le Bas Empire Romain Economie Et Numismatique (284-491)P35

³¹ - REBUFFAT (F), Op.Cit, P23

6. لقد تميزت القطعة النقدية بجمعها بين الصورة الحقيقية للشخصية و التي عادة ما تكون على وجه القطعة و بين الرمزية التي تتنوع من حيث دلالاتها و تكون غالبا على ظهر القطعة.

7. رغم نقص وزن و حجم القطعة النقدية و تغير المعدن التي تضرب منه، إلا أنّ المهمة التي تؤديها هذه العملة على الصعيد التجاري تبقى نفسها و في نفس المستوى.

يمكن القول بأنّ علم المسكوكات قبل أن يرقى إلى درجة العلوم بدأ كوسيلة ما فتئ أن أصبح فنا يبدع من خلاله صانع القطعة النقدية في إبراز كل جوانب الحياة اليومية بدقة من خلال المشاهد التي يصورها على الوجه و الظهر، فنتج عنه ما يسمى بالفن النقدي و هو الجزء الأساسي في علم المسكوكات هو حصيلة تأثير متبادل بين عوامل ثلاث:

أ - **العامل الفكري** المتمثل في فكرة اهتدى إليها الإنسان، و هي الوسيلة التي تسهل عليه عملية التبادل التجاري و يحقق من خلالها التكافؤ من حيث القيمة بين ما يباع و ما يشتري، و لم ترد هذه الوسيلة إلا بعد الحاجة الملحة التي أجهدت فكر الإنسان حتى تولدت عنه فكرة ضرب العملة.

ب - **العامل المادي** و المتمثل في المادة الخام و هي كل المعادن المتوفرة من ذهب وفضة و نحاس و برونز و رصاص وغيرها من المعادن الأخرى، و هو العامل الذي تنجز من خلاله الفكرة، فكان ضرب العملة بمعدن معين يتم حسب التغيرات التي تطرأ على الجانب السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و حتى الديني في المجتمع.

ج - **العامل الحسي** المتمثل في النزعة الشخصية المتأثرة بالنزعة القومية، و التي تتراء لنا من خلال مدى دقة و براعة تصوير المواضيع المراد ترجمتها على القطعة و مستوى تقنية التصنيع المستعملة.

و يبدو من خلال هذا البحث البسيط أنّه أثناء القرون الأولى كانت الأنماط النقدية جد متنوعة لأنّ السلطة أولت أهميّة كبرى لصور الأباطرة على وجه القطعة و المواضيع الخاصة بالظهور و هذا من حيث دقتها و جمالها. لكن ابتداء من القرن الثالث الميلادي فقدت القيمة الفنية و النقدية من قيمتها بسبب ما عرفته الإمبراطورية الرومانية السفلى من فوضى عسكرية معقدة، حيث تمّ تنصيب و عزل الكثير من الأباطرة حتى أنّ إحصائهم بات غير ممكن، و المصادر الأدبية التي حاولت ذلك لم تذكر بعضهم، و لولا العثور على بعض القطع النقدية التي ضربت بأسمائهم لبقوا طي النسيان و هذا بسبب عدم استمرارهم في مناصبهم طويلا.³² فتراكمت الأحداث وتشابكت لدرجة أنّ جمعها من شتى المصادر و ترتيبها و حتى تفسيرها يتعب الفكر و ينته به بين طيات التاريخ، و اتبع الانهيار الفني التدهور السياسي و سوء التسيير الذي أدّى بدوره إلى تضخم مالي، و رغم كل الإصلاحات المتتالية عبر العديد من الفترات إلا أنّ

³² - مورييس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الثاني، روما و إمبراطوريتها، بيروت- باريس، 1998، ص 526

الأباطرة لم يتمكنوا من إنقاذ البلاد التي عاشت الخلل الاقتصادي رغم استقرار الأمن الذي كان يبدو على سياسة الحكم³³ فقدت الأنماط من تنوعها و أصبحت صور الأباطرة على العملة جامدة و متشابهة إلى حدّ ما حتى أنّ التعرف على أحدهم يتم من خلال الأساطير فحسب. و الأكثر من هذا هو أنّه في بعض الأحيان ضربت عملة لم تكن الشخصية المقدمة فيها تلك التي تشير إليها الكتابة لأسباب ربما سياسية أو الحاجة للإنتاج النقدي، كأن تعطى لغالير تقاسيم ديوكليسيانوس أو كونستانس كلور و لكونستانس تقاسيم غالير أو ديوكليسيانوس و هذا ما حدث في نقود انتشرت في البلقان و بلاد الغال³⁴.

لقد كان ضرب العملة في جميع المراحل التاريخية يتأثر بمختلف الأنظمة السياسية المتعاقبة على الأمم، و مختلف التغيرات الاقتصادية و الأحوال الاجتماعية. و لأنّ الفن النقدي هو نتيجة حتمية لتمازج مجموعة من عناصر إصدار العملة، أهمّها المادة الأولية المتمثلة في المعادن بأنواعها و وزن القطعة النقدية و كذا سمكها و قطرها، و لأنّه فن تتحكّم فيه عوامل عديدة ترتبط أساسا بتقنية سك العملة و الصور الشخصية التي تحتل وجه القطعة إلى جانب مختلف الموضوعات المصوّرة على الظهر فقد تأثر هو بدوره بالتغيرات السالفة الذكر.

لقد برز البورتري الذي يعتبر العنصر الأساسي في الفن النقدي منذ بداية ظهور صورة الشخص المنقوشة بواقعية فضة و كأنّ الفنان يعتمد عدم إخفاء بلية من بلايا الطبيعة أو السن³⁵. ثم بدأ الفن النقدي يتخلّى على خاصية الصرامة التي سادت تحت حكم الأباطرة، فحاول منذ نهاية العهد تجديد القوة و الحرية التي ميّزت الفن النقدي في بداية العهد الروماني إلّا أنّ الوجه على القطعة النقدية كان أقلّ شموخ من أسلافه. فكانت الفكرة الشاملة للبورتري التي سادت في عهد أغسطس ترتكز أساسا على الاتجاه الخيالي حيث كانت الصورة النقدية المجردة ترسم على مساحة ما و بدون حدود ممّا جعل منها فنا تحليليا و وصفيّا، فتوحي للناظر صورة معبرة عن مختلف المشاعر الإنسانية كالعطف و الكره و حتى ألوهية الشخصية، لكن مع نهاية القرن الأول الميلادي بدأ البورتري النقدي يعرف نوعا من الحركية.³⁶

في العصر الإمبراطوري بدأ البورتري النقدي في التضخم فأخذ حجم الجزء المصوّر من الجسم في الازدياد، فعلى حين اقتصر النحات على تصوير الرأس و العنق في بداية الحكم الإمبراطوري (صورة رقم 7 و 8) نجده في أواخر العصر يصور المنكبين و الجزء الأعلى من الصدر³⁷ (صورة رقم 9 و 10)، كما نلاحظ في عملية التصوير على العملة أنّ حجم الصورة على القطعة النقدية و مكانها ليس لهما أي قاعدة محددة أو مقاسات معينة، فمرة نجد الرأس يشغل تقريبا كل مساحة القطعة (صورة رقم 11 و

³³ - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية- تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م- تعريب محمد مزالي و البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، الطبعة الرابعة، 1983، ص 271.

³⁴ - MAURICE (J), Numismatique constantinienne Dans : Revue Africaine, T.I 1910, P1

³⁵ - موريس كروزيه، المرجع السابق، ص 345.

³⁶ - BABELON (J), Le Portrait Dans L'Antiquité D'après Les Monnaies, Paris 1950, PP, 118,119.

³⁷ - د/ حسين الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة (2) الرومان، دار المعرفة الجامعية 2004، ص 340

(12)، و مرة تتقلص الصورة فتكون صغيرة جدا في مركز القطعة (صورة رقم 13 و 14)، كما نجد في بعض الأحيان إطار من الغار يلفها³⁸، لكن تبقى تلك النقاطيع و القسمات الفردية الدقيقة تبهرنا.

لقد لاحظنا على ظهر بعض القطع النقدية علامات كثيرة أهمها علامة: S C(enatus)³⁹ C(onsulto) (صورة رقم 15 و 16) و هذا يعني أنّ هذه العملة صدرت باسم مجلس الشيوخ و هو الهيئة المسؤولة عن إصدار العملة. و استمرت العملات السيناتورية في الصدور إلى غاية عام 255م لكن في إطار رمزي فقط⁴⁰، كما ظهرت علامات أخرى على العملة و ذلك خلال القرن الرابع الميلادي منها من تعبر على القيمة و أخرى خاصة بالمراقبة و أخرى قصد الإشهار أو إعلامية حتى يتسنى للناس معرفة نوع و قيمة هذه المادة، من بين هذه العلامات التحام الحرفين اللاتينيين X و p التي يظن أنّها الحروف الأولى لاسم المسيح عيسى بالإغريقية⁴¹، و هناك علامات بقيت مجهولة المعنى.

في الأخير يمكن القول بأنّ المسكوكات هي المادة التاريخية الوحيدة التي يمكن من خلالها دراسة أي جانب كان من جوانب الحياة اليومية في المجتمعات القديمة سياسية و اقتصادية و اجتماعية و دينية و فنية و ثقافية وغيرها من الجوانب الأخرى، فالناحية السياسية يمكن استنباطها من الصور الموجودة على وجه العملة و الخاصة بالحكام الذين تداولوا على السلطة، و الملاحظ أنّ مجموع القطع النقدية و التي تعود لفترة الإمبراطورية الرومانية- خاصة السفلى- هو كثرة الحكام الذين تقلّدوا الحكم عن طريق النزاعات و في فترات زمنية قصيرة جدا في بعض الأحيان خاصة في فترة الفوضى العسكرية، و كذلك التذبذب و التشابك في سياسة الحكم المشترك خاصة فترة الحكم الرباعي و بداية الإمبراطورية المسيحية، حيث كانت الدولة مسيرة من طرف أربعة حكام منهم إمبراطورين و قنصلين و هذا ما يرهق الباحث و المؤرخ في التأريخ الدقيق و تفصيل الأحداث المتداخلة لفترة من فترات الحكم الروماني.

أما الناحية الاجتماعية و الدينية فنستلهمها من الجهة الثانية للعملة المتمثلة في ظهر القطعة أين نجد في أغلبها مختلف الآلهة الخاصة بالمعتقد الوثني كإلهة النقود (صورة رقم 17) و إله الشمس (صورة رقم 18) هذا من جهة و من جهة أخرى مختلف الشعارات الخاصة بالديانة الجديدة المتبناة من قبل المجتمع الروماني و المتمثلة في الديانة المسيحية (صورة رقم 19).

و الجانب الاقتصادي الذي يعتبر أساس قيام الأمة، فنوع القطعة النقدية تدلّنا على مستواه، فضرب العملة من البرونز الذي أصبح المعدن الأساسي و الوحيد في فترة الحكم الإمبراطوري- بعدما كان الذهب و الفضة أولى المعادن في ضرب العملة- و خلطه في بعض الأحيان بمعادن أخرى كالرصاص، و هذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على تدني المستوى الاقتصادي للإمبراطورية من جهة و من جهة أخرى

³⁸-BABELON (J), Op cit, P 104.

³⁹- د/ حسين الشيخ، المرجع السابق، ص 350

⁴⁰- CALLU (J-P), La Politique Monétaire Des Empereurs Romains De 238-311, Thèse Pour Le Doctorat, Edition E De BOCCARD Paris 1969, P 59

⁴¹- PETIT (K), Le Guide Marabout De La Numismatique, Venier, Belgique, 1981, P

الحاجة الماسة إلى ضرب كميات كبيرة جدا من النقود لتغطية التكاليف الخاصة بمصاريف الأسلحة و العتاد الحربي و رواتب الجنود، فحكاه الإمبراطورية الرومانية خاصة السفلى لم يتوان الواحد منهم عن التنافس المميت و المحاربة لأجل الوصول إلى السلطة.

أما الناحية الفنية فقد استنبطتها من التحام جميع العناصر السابقة الذكر و التي استلهمنا من كل عنصر منها جانبا من جوانب الحياة، و هذا ما جعل من الفن النقدي مادة هامة من مواد الدراسة العلمية و التاريخية- في علم المسكوكات- التي تغذي الأبحاث و التي تهتم بالكشف عن الحقائق و الأحداث التاريخية لمختلف الأمم عبر التاريخ. و مهما تحدثنا عن مدى تطوّر أو تدهور العملة بصفة عامة و الفن النقدي بصفة خاصة، إلّا أنّ العملة الرومانية بقيت متداولة و بصورة واسعة في إطار جغرافي واسع لمدة ثمانية قرون معبرة بذلك عن شتى الأفكار الرومانية جمهورية و إمبراطورية.

8- البطاقة التقنية للقطعة النقدية.

رقم الجرد		رقم القطعة
4		38
المصدر: قالمة		القطر: 2,6
مكان الحفظ: م.و.أ.ق. المتحف الوطني للآثار القديمة		السبك: 0,1
حالة الحفظ: جيدة		الوزن: 6,2غ
		الإتجاه: ↑↑
		المادة: البرونز
الكتابة		
الظهر		الوجه
GENIOPOPV LEROMA		IMP MAXIMIANUS P AVG
الوصف		
الظهر		الوجه
معبود العبقريّة عار واقف إلى اليسار فوق رأسه قبعة، يمسك معلق و قرن الوفرة. وسط القطعة: S C		نصف علوي لإمبراطور برباط متجه إلى اليمين

الببليوغرافيا

LAURENT SCHMITT & MICHEL PRIEUR, Les Monnaies Romaines

Edition Les Cheveau- Léger, 2004

قراءة القطعة النقدية:

وجه القطعة

Grènetis - الإطار المحبب

Légende - الكتابة



Effigie - صورة الشخصية

ظهر القطعة

Champ - الحقل

Type - النمط

Légende - الكتابة



Grénitis - إطار محبب

Marque d'atelier - علامة الورشة

Exergue - حاشية العملة السفلية

9- ملحق الصور



صورة رقم 2



صورة رقم 1



صورة رقم 4



صورة رقم 3



صورة رقم 6



صورة رقم 5



صورة رقم 8



صورة رقم 7



صورة رقم 10



صورة رقم 9



صورة رقم 12



صورة رقم 11



صورة رقم 14



صورة رقم 13



صورة رقم 16



صورة رقم 15



صورة رقم 18



صورة رقم 17

صورة رقم 19

